النمو العقلي للإنسان
دراسة مقارنة بين المنظور الإسلامي وعلم النفس

د. إسراء محمد البشير مفرح*

المستخلص

هدف البحث إلى تقصي الرؤى حول النمو العقلي للإنسان في المنظور الإسلامي وعلم النفس المعرفي الكلاسيكي، تحديداً نموذجي جان (بياجيه) و(ليف فايجوتسكي). حيث بيَّن البحث أهمية النمو العقلي وأطواره ومراحله والمؤثرات عليه التي أشارت إليها آيات القرآن الكريم وحديث النبي (ﷺ) ، بالإضافة إلى عرض آراء المفكرين المسلمين الذين تأثروا بالموجهات الدينية في تناولهم للنمو العقلي والمعرفي وما يرتبط به من تكاليف دينية واجتماعية. كذلك أبرز البحث آراء كل من (بياجيه) و(فايجوتسكي) حول مراحل النمو العقلي المعرفي والمؤثرات عليه. واستخدمت الباحثة المنهج الوصفي والتحليلي المقارن. خلص البحث إلى اتفاق المنظور الإسلامي وعلم النفس في الاهتمام بدراسة النمو العقلي المعرفي وبيان مراحله وغاياته، وبينت تأثير الفكر والثقافة على الاهتمام بظاهرة النمو العقلي المعرفي، كما أوضح تميز التناول الإسلامي للنمو العقلي باعتباره عملية تستمر وتتجاوز مراحلها مرحلة النضج البيولوجي مرتبطة بالتكليف الديني والمسؤولية الاجتماعية وما يترتب عليهما.

* قسم الدراسات الإسلامية- جامعة الخرطوم - كلية الآداب.

مقدمة:

استوقف النمو العقلي المفكرين والباحثين في مجال النمو البشري إقراراً بأهميته في التطور الإنساني الفردي والجماعي. وقد اختلفت النظرات إلى مظاهر النمو العقلي التي جرت دراستها بحسب الاختلافات حول ماهية العقل أو وظيفته وارتباط مراحله بمراحل العمر. فاقتربت الآراء أحياناً وتباعدت أحيانا أخرى حول بداية هذا النمو وغاياته المرجوة وأهميته في جوانب الحياة المختلفة، والعوامل المؤثرة عليه.

فلا ينفصل تناول النمو العقلي في الفكر الإسلامي عن تناول النمو البشري المتكامل بجوانبه المتعددة. بل إنّ الإشارة إلى أنماط النمو المختلفة تتم غالباً في سياق ارتباطها بمظاهر النمو العقلي. وذلك لأهمية العقل في الفكر الإسلامي باعتباره أداة ميز بها الله سبحانه وتعالى الإنسان لتحمل أعباء الأمانة والاستخلاف في الأرض. فالتزم جل مفكري الإسلام في تناولهم للنمو العقلي بالإشارات الدينية التي تحدد الغرض من وجود الإنسان وتزويده بالعقل الذي يعتبر الكفاءة الضرورية لتحمل المسئوليات كافة.

أما في علم النفس المعرفي فيرتبط النمو العقلي بنمو المقدرات العقلية، أو البنى العقلية، التي تتزامن مع نمو الإنسان الجسدي ممكنة له من استيعاب ما حوله من مثيرات بيئية والتفاعل معها بما يمكنه من النجاح في العيش وفق متطلبات وتحديات المجتمع والثقافة التي يحيا في كنفها[1]. ويتجلى هذا في نماذج أو نظريات النمو التي اقترحها المعرفيون والتي تعتبر أعمال (بياجيه) و(فايجوتسكي) أكثرها شهرة وتداولاً.

مشكلة البحث:

يسترعي الانتباه الاهتمام الذي يولى لدراسة وفهم السمات والمقدرات العقلية والمؤثرات عليها، لاستثمار ذلك في تنمية وتوجيه الطاقات العقلية في ضمان توفير حياة مثلى للفرد والمجتمع. ومع غنى التراث الإسلامي بما يمكن أن يُسترشد به في فهم وضبط السلوك الإنساني عموماً، وفهم وتنمية العقل والمقدرات العقلية خصوصاً؛ فقد غلب التوجه في العالم الإسلامي المعاصر على استخدام نظريات ومصادر المعرفة الغربية معينات في فهم واستثمار ملكة العقل والمقدرات العقلية رغم أن هذه المعارف قد انتجت في ظل موجهات حضارية وثقافية مغايرة، ولخدمة أغراض تلك الحضارات والثقافات. ويشمل هذا التوجه الاحتفاء بالقديم والحديث من هذه المعارف المستوردة؛ مما يستوجب بيان ثراء الفكر الإسلامي التراثي وسبقه وقيمته التاريخية، وعدم تخلفه عن غيره من ضروب الفكر الإنساني الكلاسيكي؛ وأنه يمثل حلقة مهمة من حلقات التراكم المعرفي الإنساني، مع تميزه بخاصية خدمة وتلبية احتياجات المجتمع وفق المعايير والضوابط والقيم الدينية.

[1] مفرح، إسراء محمد البشير مفرح، مؤثرات الوراثة والبيئة على النمو العقلي للطفل، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، الخرطوم، 2011م.

أهداف البحث:

- تقصي الرؤى حول النمو العقلي في المنظور الإسلامي وعلم النفس المعرفي.
- بيان الإشارات في المصادر الدينية الإسلامية إلى النمو العقلي وأطواره والمؤثرات عليه
- عرض آراء المفكرين المسلمين الذين تأثروا بالموجهات الدينية في تناولهم للنمو العقلي والمعرفي وما يرتبط به من تكاليف دينية واجتماعية.
- ابراز آراء كل من بياجيه وفايجوتسكي حول مراحل النمو العقلي المعرفي والمؤثرات عليه، ومقارنتها بآراء المسلمين لبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الفريقين.

أهمية البحث:

- المساهمة في التأصيل الإسلامي لعلم النفس.
- إبراز ثراء الفكر الإسلامي بالمعارف المتعلقة بالمقدرات العقلية الإنسانية.
- الاستفادة من تراكم المعرفة الإنسانية بما لا يتعارض مع المبادئ والموجهات الدينية.

منهج البحث:

اتبع المنهج التاريخي والتحليلي المقارن في رصد وتحليل آراء طائفة من العلماء والمفكرين المسلمين ومضاهاتها بآراء كل من جان (بياجيه) و(فايجوتسكي) حول طبيعة النمو العقلي ومراحله والمؤثرات عليه لاستنباط وايضاح مواطن التلاقي والخلاف بين الجانبين حول موضوع البحث.

النمو العقلي:

تحكم المرجعيات الفكرية والعقدية الاختلافات بين المفكرين في التراث الإسلامي وعلم النفس حول النمو العقلي وآلياته ومراحله. فتتعلق النظرة إلى النمو العقلي في التراث الإسلامي بالغاية من خلق الإنسان وتزويده بملكة العقل التي حمل بموجبها الأمانة ومُكن من استعمار الأرض. فالإنسان مخلوق لعبادة الله سبحانه وتعالى في المقام الأول. قال تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] الذاريات: 56.. ثم لعمارة الأرض في إطار هذه العبادة، لقوله تعالى: [هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] هود:61. وكلا المهمتين أو الوظيفتين تقوم على ملكة العقل والمقدرة على التفكر والتفكير وغيرها من المقدرات العقلية. فبالعقل يعرف الله سبحانه وتعالى ويعرف النافع والضار من الأمور "فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم"[2].

[2] المحاسبي، الحارث بن أسد، العقل وفهم القرآن، تحقيق وتعليق وتقديم حسن القوتلي، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م.ن، 1983م، ص 202.

فهدف وغاية النمو العقلي في التراث الإسلامي بلوغ الفرد هذه الدرجة أو المرتبة التي يطالب فيها بأداء هذه الوظائف والمهام التي من أجلها خُلق. فكل إنسان سوي يولد مزوداً بملكة العقل وأدوات اكتساب المعارف، يقول تعالى: [وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] النحل: 78. وباستخدام هذه الأدوات ينمو العقل. "العقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول"[3]. كما أنّ الإنسان لا يساءل أو يكلف دينياً أو اجتماعياً ما لم يبلغ نمو عقله ومعارفه درجة الأهلية التي تمكنه من احتمال التكاليف وأداء الأمانة واستحقاق المساءلة والجزاء.

فغاية استعمار الأرض واستغلال مواردها هدف بشري عام. يقول الله تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ] الملك: 15. وكل البشر مزودون بما يمكنهم من هذا الاستغلال، إلا أنهم يتفاوتون في الدرجات التي يبلغونها من ذلك بحسب سعيهم واجتهادهم. غير أنّ أهداف النمو العقلي وغاياته عند مفكري الإسلام لا تقف عند هذا الحد العام من المقدرة على توظيف المقدرات العقلية في عمارة الأرض أو التوافق مع البيئة وتوظيف الموارد لتلبية الاحتياجات الحياتية الآنية. بل تتعداها إلى النظر إلى عواقب ومآلات الأعمال في الآخرة.

فقد ركز مفكرو الإسلام الذين تناولوا موضوع العقل على ضرورة "المعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة.. ومنه أن تعظم معرفته بعظيم قدر الله تعالى وبقدر نعمه وإحسانه وبعظيم قدر ثوابه وعقابه لينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب"[4]. فالغاية من النمو العقلي معرفة الله سبحانه وتعالى، ومعرفة أوامره ونواهيه وثوابه وعقابه والعمل تبعاً لذلك. ويتفاوت الناس في المدى الذي يبلغون من هذه الغاية المرتبطة بمعرفة الله سبحانه وتعالى التي لا يبلغ مدى الكمال فيها بشر. "فلا أحد يساوي الله عز وجل في العلم بنفسه فيعرف عن عظمته تعالى وكمال صفاته كما يعلم الله عز وجل عن نفسه"[5]. وأقصى غايات العقل الإنساني هي الوصول إلى مراتب النبوة [6] والاستعداد لتلقي الغيبيات أو مرتبة العقل القدسي[7] أو الوصول إلى الحضرة الإلهية التي لا يبلغها إلا النادر المصطفى من البشر[8].

---

[3] المحاسبي، ص 205.
[4] المحاسبي، ص 210.
[5] المحاسبي، ص 219.
[6] الغزالي، الإمام أبي حامد الغزالي، المنقذ من الضلال: مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي، د.عبد الحليم محمود، مطبعة حسان، د.م.ن، ب. ت، ص 149؛ ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم مصطفى غالب، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت 1983م، ص 86.
[7] إبن سينا، أبو علي الحسن إبن علي، الشفاء، الطبيعيات، النفس، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور، تحقيق جورج قنواتى، سعيد زايد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م، ص 219.
[8] ابن طفيل، حي بن يقظان، مرجع سابق، ص 95-97.

وهذا الجانب من غايات النمو العقلي المرتبط بالتكليف والعلاقة بالله سبحانه وتعالى، الذي استفاض في وصفه وسبل الوصول إليه علماء المسلمين لم يتعرض له علماء النفس. ولا يشار إلى غايات للنمو العقلي في علم النفس تتعدى الوجود الأرضي. وذلك إما اتباعاً للمنهج العلمي الذي لا يتعاطى مع الغيبيات وغير المحسوس والمشاهد من مظاهر السلوك؛ أو تقيداً بأيدولوجيات فكرية لا مكان فيها للمعتقدات والتوجيهات الدينية[9]. وانصبت الجهود تبعاً لذلك في اتجاه بيان غايات النمو العقلي في جانب استعمار الأرض في الحياة الدنيا. فغاية النمو العقلي في علم النفس التوافق مع البيئات المختلفة المحيطة بالفرد، التي تزداد تنوعاً وتعقيداً بتقدم العمر وتنوع وزيادة البيئات التي يتم التعامل معها. ويعتبر (بياجية) حالات الاتزان التي تحدث بين البنى العقلية ومتطلبات البيئة الغاية أو الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه النمو العقلي خلال مراحله المتتابعة. فحالات عدم الاتزان أو عدم موافقة البنى العقلية الراهنة لمتطلبات وتحديات البيئة هي المحرك للنمو العقلي لبلوغ الاتزان المنشود، والتطور والنمو عبر المراحل المتعاقبة[10]. أما (فايجوتسكي) فغاية النمو العقلي في نظره هي التمكن من الرموز والأدوات المجتمعية التي تتنوع بحسب الثقافة السائدة في مجتمع ما[11]. فتتفاوت غايات النمو العقلي بتفاوت درجات ثقافة وتحضر المجتمعات ومقدار ما توفره من رموز محفزه على النمو العقلي[12]. وتتمثل أعلى غايات النمو العقلي في القدرة على التفكير المجرد ومن ثم الإبداع في مجالات الإنتاج الثقافي الحضاري المختلفة التي يبلغها القلة من المبدعين والنوابغ.

مراحل النمو العقلي:

لعل أكثر الجوانب التي تتقارب فيها وجهات النظر حول النمو العقلي بين التراث الإسلامي وعلم النفس هو جانب النمو المتدرج أو الممرحل للعقل والمقدرات العقلية. فيتفق الجانبان حول انطلاق النمو العقلي من مدارج السلوك البدائي البهيمي الطابع إلى درجات الفكر الإنساني بالتقدم خلال سني العمر[13]. ومن بعد ذلك تتفاوت آراء المفكرين في الجانبين حول عدد ومنتهى وطبيعة هذه المراحل وآليات الترقي والانتقال خلالها. وتتمثل المراحل الرئيسة التي يرتقي الإنسان خلالها في:

---

[9] Vygotsky, L. S. Three Planes Of Psychological Development, 1930 source: Ape, Primitive Man and Child: Essays in the History of Behavior, site: *www.marxists.org/archive/Vygotsky/woks/1930/man/ch01.htm*

[10] Flavell, John H; Miller, Batricia H; Miller, Scott A, Cognitive development, 3rd edition, prentice hall, Englewood cliffs, New Jersey, 1997, P 4-7.

[11] Wretsch, James V.; Tulviste, Peter L. S., Vygotsky And Contemporary Developmental Psychology, EDT Harry Daniels, An Introduction To Vygotsky, 2nd edition, Routldge, London, 2005, P. 59-80

[12] ميللر، باتريشيا ميللر، نظريات النمو، ترجمة محمود عوض الله سالم، مجدي محمد الشحات، أحمد حسن عاشور، ط1 العربية، دار الفكر، عمان، الأردن، 2005م، ص 362.

[13] Vygotsky, L. S., Mind in Society the Development of Higher Psychological Processes, Harvard University Press, USA, 1978, P 36-37.

-ابن حزم، الإمام أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، الفِصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميره، دار الجيل، بيروت 1985م، ص. 241-242.

1- مرحلة الطفولة المبكرة:

يمكن القول أنّ هنالك شبه إجماع في الفكر الإنساني على اعتبار مرحله الطفولة المبكرة مرحلة خلو من ملكة ومقدرات العقل الإنساني، فهي المرحلة التي "يفعل فيها عن القوى الغاذية والحيوانية" بحسب قول الفلاسفة[14]. فقد حدها معظم المفكرين، من أمثال ابن طفيل وبياجيه بالفترة من الميلاد إلى بلوغ العامين من عمر الوليد وجعل فايجوتسكي علامة نهايتها اكتشاف الطفل لمقدراته الإنسانية التطورية التي تميزه عن الحيوان[15].

وينصب الاهتمام خلال هذه المرحلة على تلبية حاجات النمو الجسمي وحفظ النفس. وذلك بتوفير العناية والمعينات على بلوغ هذه الغاية من قبل المحيطين بالطفل البشري. وهذا ما جهد ابن طفيل في بيان توافره في الجزيرة معتدلة المناخ، موفورة الموارد، ووجود الظبية المتعطشة لإشباع غريزة الأمومة، مما دفعها للعناية بالوليد البشري الذي واكبت قصة حي بن يقظان تدرجه إلى أقصى غايات النمو العقلي البشري. فلم يذكر ابن طفيل أي منشط لحي قبل الحولين سوى التغذي بلبن الظبية حتى تدرج في المشي وأثغر وبدأ يأكل الثمار ويشرب الماء بالإضافة للرضاعة[16]. فما يزال فعل القوى النباتية المغذية والحيوانية المحركة هو الغالب على سلوكه. فلم يكترث العلماء المسلمون بالنظر إلى ملكة العقل الإنسانية في هذه المرحلة الحيوانية الطابع ووافقهم في ذلك (فايجوتسكي). وقد تفرد (بياجيه) بالعناية الفائقة بهذه المرحلة ووصف تطور السلوك الحسحركي خلالها. ولم يصرح بربط الطفل فيها بعالم الحيوان من خلال تسميتها بعمر القرد كما فعل (فايجوتسكي)[17]، أو وصف مناشطها بالبهيمية كما درج على ذلك الفلاسفة[18]. ويتفق (بياجيه) مع بقية المفكرين على أهمية هذه المرحلة في التمهيد للنمو العقلي اللاحق إلا أنه زاد في تخصيصها بإيضاح أن قوانين النمو التي تحكم نمو السلوك البدائي إلى سلوك ذكي هي نفس القوانين التي تحكم النمو العقلي في كل مراحله التالية[19]. وأطلق (بياجيه) اسم "الحسحركية" على هذه المرحلة دلالة على غلبة أدوار الحس والحركة عليها دون العقل. وعني بتقسيمها إلى ست مراحل فرعية، فصل فيها تطور مقدرات الطفل في إدراك البيئة والتنسيق بين الأنظمة الحسحركية. وبداية الأنشطة العقلية والذكاء، وتكوين المفاهيم الضرورية لتسهيل نشاطه في البيئة. ومن

---

[14] مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، تهذيب الأخلاق، حققه قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية بيروت، 1966م، ص55؛ ابن باجه، أبو بكر بن باجه الأندلسي، كتاب النفس، حققه محمد صغير المعصومي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960م، ص 89-90؛ أنظر: مفرح، مؤثرات الوراثة والبيئة على النمو العقلي للطفل، مرجع سابق.

[15] Vygotsky, Mind in Society P. 36

[16] ابن طفيل، حي بن يقظان، مرجع سابق، ص 108.

[17] Vygotsky, L. S, The Problem Of The Cultural Development Of The Child, first published 1929, The Journal Of Genetic Psychology, 36,413-32. Site: www.marxsist.org/archive/vygotsky/works/1929/culture_development.htm 7/3/2007.

[18] ابن باجه، كتاب تدبير المتوحد، مرجع سابق، ص 90.

[19] Piaget, Jean Piaget; Inhelder, Bärbel, The Psychology of The Child, Routledge & Kegan Paul, London, 1969, P. 19

أهم تلك المفاهيم، مفهوم بقاء الموضوع[20] الذي يجعل ابن طفيل ظهوره في المرحلة التي تلي مرحلة العامين. وقد اتفق ابن طفيل مع (بياجيه) حول بداية النشاط العقلي في المرحلة الحسحركية بالتقليد والمحاكاة والتعبير عن الانفعالات[21].

كذلك أشار الغزالي ضمناً إلى أهمية اكتساب مقدرات الحس في النمو العقلي عندما جعل التدرج في إيجادها بداية الطريق المؤدي إلى درجات العقل وما بعده من نبوة[22]. ويعتبر مفكرو الإسلام هذه المرحلة مرحلة التمهيد للتمييز الذي يتفاوت الناس في سن بلوغه[23]. وتحكم هذه المرحلة عند جميع المفكرين آليات النضج الجسمي التلقائي المحكوم بعوامل الوراثة بقدر أكبر من غيرها من العوامل.

وبعد تخطي الطفل لهذه المرحلة التمهيدية أو الأولية من النمو العقلي تختلف رؤى المفكرين اختلافاً جماً حول المراحل التالية من مراحل النمو العقلي، والسن التي يبلغ فيها النمو العقلي مداه، وكذلك حول الآليات الموصلة إلى هذا المدى. إلا أن المفكرين يجمعون على أهمية بعض المواقيت في عمر الطفل. ومن أبرز هذه المواقيت عمر السابعة والبلوغ. وزاد المسلمون سن الأربعين استناداً إلى إشارة القرآن لارتباطها بكمال العقل.

2- عمر السابعة (عمر المدرسة / سن التمييز):

فعمر السابعة اعتبره المسلمون العمر الذي يتأكد فيه الدخول في سن التمييز[24] لارتباطه بالأمر بالصلاة أول مراحل التكليف الديني. وهو العمر الذي تختاره معظم المجتمعات الإنسانية لبداية تدريب الناشئة على اكتساب ثقافة ومعتقدات وعادات وتقاليد المجتمع الذي يعيشون في كنفه. كما يرتبط بعمر المدرسة أو بدء التعليم النظامي في المجتمعات المتحضرة[25]. ويعده (بياجيه) ميقاتاً تقريبياً لنهاية مرحلة ما قبل العمليات التي تلي المرحلة الحسحركية. ويكتسب الطفل خلال هذه المرحلة المقدرة على استخدام اللغة وما يرتبط بها من مقدرات على التفكير المجرد من الحس المباشر[26]. وقد وافقه (فايجوتسكي) في أهمية مرحلة ما قبل المدرسة في اكتساب اللغة باعتبارها أهم رمز اجتماعي يؤسس للنمو العقلي الذي يرتبط عنده باكتساب أو استدخال "*Internalization*" الرموز الاجتماعية واستخدامها أدوات للتفكير المجرد[27]. كما أشارا إلى أهمية اللعب في هذه المرحلة حيث تظهر في إطار اللعب أول دلائل المقدرات العقلية المتمثلة في الذاكرة والتعامل مع المعاني،

---

[20] Piaget , et al, The Psychology of The Child, P. 6-15

[21] ابن طفيل، مرجع سابق، ص 109.

[22] الغزالي، المنقذ من الضلال، مرجع سابق، ص 148-149.

[23] ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد، تحفة المودود بأحكام المولود، خرج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، ط1، مكتبة الصفا، القاهرة، 2005م، ص 197.

[24] المرجع نفسه، ص 198.

[25] Crain,William, Theories of Development Concepts and Applications, 5th Edition, Pearson Education LTD, London, 2005, P. 142.

[26] Piaget, et al, The Psychology of The Child, op.cit, P.92.

[27] Vygotsky, Mind in Society, op.cit, P. 21-32.

والانضباط بالقوانين، أي محددات السلوك الاجتماعي[28]. وقد نبه العلماء المسلمون من أمثال الغزالي والبلدي إلى أهمية اللعب في هذا العمر كذلك، وأوصيا بإعطاء الطفل الحرية لمزاولته[29].

ولعل خاصية التمكن من اللغة في هذه المرحلة العمرية، السابقة للسنة السابعة من العمر، هي المنبئة باستعداد الطفل لتحمل التدريب على أداء التكاليف الدينية والمجتمعية. فالأمر بالصلاة مثلاً لا يتحقق تنفيذه دون التمكن من أداء أركانها وسننها المرتبطة باللغة بشكل كبير. كما أن التواصل الاجتماعي عبر الأجيال لا يتم إلا عن طريق شتى صنوف التعبير وأهمها اللغة. وقد أشار ابن طفيل إلى أهمية المقدرة على التواصل الصوتي بين أفراد الجماعات التي تمكن منها حي قبل بلوغ السابعة وذلك لارتباطها بمتطلبات البقاء. فحي بن يقظان الذي أوصله ابن طفيل إلى أقصى درجات الكمال العقلي البشري دون التمكن من استخدام لغة البشر؛ لا يستغني عن التواصل الصوتي مع أفراد الجنس الذي احتضنه "فما زال الطفل مع الظباء يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع إذ للحيوانات في هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة فألفته الوحوش وألفها"[30].

وقبل بلوغ السابعة تمكن حي بن يقظان من المقدرة على التمييز والملاحظة وتكوين مفهوم بقاء الموضوع [31]، "فلما ثبت في نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته"[32]. وهو المفهوم الذي أشار (بياجيه) إلى التمكن منه خلال المرحلة الحسحركية التي تنتهي عند الثانية من العمر تقريباً. ثم بعد أن أربى حي بن يقظان على السبع سنين تمكن من التفكير المنطقي الذي استند إليه في تفسير وفهم موت الظبية التي ربته وذلك عن طريق استنتاج النتائج من المقدمات والاستدلال بالمشاهد على غير المشاهد[33]. ويلاحظ في مراحل النمو العقلي المرتبطة بسن السابعة زيادة أثر المؤثرات البيئية على عملية النمو العقلي، حتى يكاد يتساوى أثرها مع المؤثرات الوراثية. وبعد تجاوز سن السابعة تبعد الشقة بين المفكرين في وصف وتعداد مراحل النمو. فيعتمد (فايجوتسكي) سن المدرسة بداية النمو العقلي الموجه بوساطة الأفراد المؤثرين على الطفل في المجتمع والمدرسة[34]. ولم يذكر (فايجوتسكي) مرحلة نمو تلي هذه النقطة من النمو العقلي. فكأنما النمو العقلي يمتد بعد عمر المدرسة إلى

---

[28] Vygotsky, L. S, Play and Its Role in the Mental Development of the Child, Site: *www.marxsist.org/archive/vygotsky/works/1993/play.htm*. 7/3/2007.

[29] محمود المصري، تدبير الأطفال الجسدي والنفسي في التراث العلمي الطبي العربي، ماجستير غير منشور، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، قسم العلوم الطبية، ب. ت,ص 351.

[30] ابن طفيل، ص 109.

[31] أبو عاقلة، الشيخ محمد أبوعاقله الترابي، فلسفة ابن طفيل ومنهجه في التربية، ط1، دار البيان للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م، ص 102-103.

[32] ابن طفيل، ص 109.

[33] ابن طفيل، ص 109 -119، أبو عاقلة، ص 103-104.

[34] Crain, op.cit, P. 263.

غايات وآماد تحددها المقدرات العقلية للفرد ونوعية التوجيه والتحفيز المعين على بلوغ غايات النمو خلال مجالات النمو المحتمل "*Zone of Proximal Development*". وقد نسب إلى (فايجوتسكي) القول بأهمية التركيز على دراسة تطور البنى العقلية العليا من الميلاد إلى الممات لاكتشاف وفهم طبيعة تلك العمليات[35]. مما قد يوحي باحتمال اعتقاده إمكانية استمرار النمو العقلي باستمرار الحياة.

3-سن البلوغ:

يلاحظ أن (فايجوتسكي) لم يقف على سن البلوغ باعتبارها ميقاتاً مؤثراً على النمو العقلي مخالفاً بذلك (بياجيه) وغالب العلماء المسلمين. فـ(بياجيه) يعتبر نهاية مرحلة الطفولة وبداية مرحلة الشباب، التي يحددها البلوغ، غاية مراحل النمو العقلي التي وصفها. حيث تتغير طبيعة التفكير ويُتمكن من التفكير المجرد من الحس واستخدام العلاقات المنطقية [36]. فيزيد النمو العقلي في المقدار وليس في النوع والكيف بعد البلوغ[37].

أما في التراث الإسلامي فتمثل سن بلوغ الحلم السن التي يكتمل فيها عقل التكليف الذي يستحق بموجبه الفرد تحمل المسؤوليات الدينية والاجتماعية. ثم يستمر النمو العقلي كماً وكيفاً لغايات تحددها الفروق الفردية والعناية الإلهية. ويلاحظ أن ابن طفيل تجاوز ذكر مرحلة البلوغ كما فعل (فايجوتسكي). وقد يُرد ذلك إلى تركيز الأول على توضيح مسار النمو العقلي المجرد عن تبعات الجسد التي جهد في كسر الشهوات المرتبطة بالضروري منها لاستمرار حياة وبقاء الفرد. فلم يشر إلى حاجة جسدية أخرى قد يؤدي التفكير في متعلقاتها إلى صرفه عن مبتغاه في تمام التحرر من علائق الجسد والمادة والعلائق الاجتماعية البشرية.

أما (فايجوتسكي) فمع إقراره بأهمية خط النمو العضوي إلا أنه اقتصر في أعماله على تناول جانب النمو الاجتماعي لارتباطه الوثيق بنمو العقل الإنساني. بينما يرتبط النضج الجسمي بصورة أكبر بنمو العقل البدائي في رأيه[38].

وبالوصول إلى مرحلة البلوغ التي يعتبرها (بياجيه) منتهى مراحل النمو العقلي تتجلى جوانب قصور نظريته عن مطابقة الواقع. فقد أشار العديد من الباحثين إلى عدم وصول كثير من البالغين إلى مرحلة التفكير المجرد والمنطقي[39]، كما أظهرت بعض الدراسات الحديثة عدم تمكن المراهقين وبعض البالغين من التفكير العلمي والتفرقة بين الفرضية والدليل[40]. فمرحلة البلوغ قد تكون مؤشراً على اكتمال نمو البنى الجسدية المرتبطة بالعقل،

---

[35] Wretsch, James V., Vygotsky and the Social Formation of Mind, Harvard University Press, Massachusetts, 1985, P. 17.

[36] ماير، ثلاث نظريات، مرجع سابق، ص 155.

[37] طه، الزبير بشير، علم النفس فى التراث العربي الإسلامي، ط1، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، 1995م، ص 67.

[38] Vygotsky, Mind in Society, op.cit, V.

[39] طه، علم النفس في التراث الإسلامي، ص 64.

[40] Flavell, et al, Cognitive Development, op.cit, P.164-169.

وقد أشار (بياجيه) إلى استمرار نمو الدماغ إلى سن السادسة عشر[41]. إلا أن بلوغ الحلم لا يمثل بالضرورة تمام التمكن من المقدرات والمعارف العقلية. ويبدو أن هذا ما دفع ابن طفيل إلى عدم التوقف عند السن أو العمر المرتبط ببلوغ الحلم. فوصف مرحلة للنمو تشمل "السابوعين" الثاني والثالث ممتدة من سن السابعة إلى الحادية والعشرين ومتجاوزه لسن البلوغ. وفي هذه المرحلة تمكن حي بن يقظان من معرفة سبل تأمين ضرورات الحياة من مأكل وملبس ومسكن فاتخذ الأسلحة والمسكن واستأنس الحيوان[42] وإن لم يبارح تفكيره مرتبة الاستدلال بالمحسوسات على الحقائق[43]. ولم يبلغ درجة التجريد. فهو حكماً في مرحلة العمليات الحسية لـ(بياجيه) التي تنتهي بعمر الحادية عشر[44]. ولا تبدأ مرحلة العمليات الصورية لـ(بياجيه) عند حي إلا بعد بلوغه سن الحادية والعشرين حيث بدأ بالنظر العقلي "فلاحت له صور الأجسام على اختلافها. وهو أول ما لاح من العالم الروحاني إذ هي صور لا تدرك بالحس إنما تدرك بضرب من النظر "العقلي"[45].

المؤثرات على النمو العقلي:

تتنوع المؤثرات على النمو العقلي التي يبرزها الفكر الإنساني وتتفاوت في الأهمية إلا أنها في مجملها لا تخرج عن نطاق العوامل الوراثية أو البيئية التي تنوعت تفاصيلها بين التوجهات الفكرية والثقافية المختلفة. كما تنوعت الجوانب التي أولاها المفكرون عنايتهم وركزوا عليها جهود بحثهم وفكرهم لعظيم تأثيرها على العقل والنمو العقلي دون سواها من العوامل وتتمثل أهم المؤثرات على النمو العقلي التي أشار إليها العلماء والمفكرون في:

1- **المشيئة والعناية الإلهية**:

تميز التراث الإسلامي بإبراز عامل المشيئة والعناية الإلهية عاملاً رئيساً مؤثراً على العقل وعلى العوامل المؤثرة عليه. ويستنبط أثر هذا العامل من نصوص القرآن الكريم المتعلقة بالمميزين من البشر الذين يختارهم الله سبحانه وتعالى ويتولاهم برعايته لأداء أدوار اختصهم بها. وقد تعددت الآيات والقصص القرآنية التي تبين أهمية هذا العامل التي تحفل بألفاظ ودلائل الاصطفاء والتمييز المؤدي إلى ضمان بلوغ هؤلاء المختارين لتمام المقدرة على القيام بما كلفوا به من مهام، مثل قوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ] آل عمران:33. فدرجات النبوة لا يخفى تميز من بلغوها من البشر في صحة الذهن وسعة المدارك المؤهلين لتقبل المعارف الإلهية. وقد وسع المفكرون المسلمون مدى هذه العناية الإلهية فشملت غير الأنبياء والرسل. فمن عامة البشر من يميزه

---

[41] Piaget, et al, op.cit, P. vii.

[42] ابن طفيل، ص 125-127

[43] المرجع نفسه، ص 113-125

[44] Piaget, et al, P. 101-190

[45] ابن طفيل، ص 135.

الله سبحانه وتعالى بمقدرات عقلية يبز بها أسلافه وأترابه. فتتفاوت تبعاً لذلك غريزة العقل والعلوم المكتسبة بها والوظائف المناطة بأصحابها. وهو ما أشار إليه الفارابي بقوله: " مراتب أهل المدينة تتفاضل في الرئاسة والخدمة بحسب فطر أهلها وبحسب الآداب التي تأدبوا بها"[46]. وليس كل سليم فطرة بقابل للتأديب بغير تفضل الله تعالى "فإنه قد يخص بالتنبيه والتوفيق من شاء من عباده"[47]. فتمتد مشيئة الله سبحانه وتعالى وتشمل هبة غريزة العقل المتفاوتة ابتداءً، ثم التوفيق في استخدامها الاستخدام الأوفق. وقد قدم المفكرون المسلمون هذا الجانب الإلهي من المؤثرات على النمو العقلي على غيره من المؤثرات التي تناولوها، التي لا تبعد عما تناوله علماء النفس من مؤثرات على العقل والنمو العقلي.

2- **إرادة الفرد**:

جانب تأثير الإرادة على النمو من الجوانب التي بزت فيها إسهامات علماء التراث الإسلامي إسهامات علماء النفس[48]. فحرية إرادة الفرد واختياره هي المحدد لاتجاهات نموه العقلي المعرفي واستغلال قدراته العقلية في الفكر الإسلامي. قال تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] الشمس: 9.. وعلى هذا العامل تترتب عدالة الجزاء المستحق على المكلفين من العقلاء. يقول الله تعالى: [وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى] النجم: 39-41. فبالإرادة يستطيع "أن يفعل الخير وأن يفعل الشر والجميل والقبيح"[49]. وبالإرادة تكون المواظبة والجد والهمة، "فالجد والهمة الركن في تحصيل الأشياء"[50].

وقد وجد عامل الإرادة مؤخراً طريقه إلى علم النفس، وذلك عن طريق الأعمال التي تبرز أثر أنشطة الفرد الإرادية عند اعتبار الأثر المشترك للأنظمة البيولوجية والبيئية والسلوكية المؤثرة على النمو العقلي. فيظهر دور نشاط الفرد موجهاً لنظام يجمع البيولوجي والبيئي في التأثير على النمو العقلي[51].

ومن خلال جانب رياضة الإرادة أبان المربون والمصلحون المسلمون ارتباط العقل بالوجدان. فكانت وصاياهم في تربية النشء تقوم على تقوية الإرادة في قمع الشهوات وعدم اتباع الهوى والنظر في عواقب الأمور قبل الإقدام عليها[52]. فالعدول عن الحقائق

---

[46] الفارابي، أبو نصر، كتاب السياسة المدنية، الملقب بمبادئ الموجودات، حققه وقدم له وعلق عليه فوزي متري نجار، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1934م، ص 55

[47] المحاسبي، العقل وفهم القرآن، مرجع سابق، ص 207.

[48] Thomas, Murray EDT, Oriental Theories of Human Development: Scriptural and Popular Beliefs from Hinduism, Buddhism, Confucianism, Shinto and Islam, Peter Lang Publishing, New York, 1988, P. 16-18

[49] الفارابي، كتاب السياسة المدنية، ص 72.

[50] برهان الدين الزرنوجي، تعليم المتعلم ليعلم طريق التعلم، مخطوط، مصدره، موقع مخطوطات الأزهر الشريف، ص 26، منزل من:

[51] Bidell, Thomas R.; Fischer, Kurt W. Between Nature And Nurture: The Role Of Human Agency In The Epigenesis Of Intelligence, op.cit.

[52] الغزالي، الإمام أبو حامد، إحياء علوم الدين، ط3 مزيدة ومنقحة، دار القلم، د.م.ن، ب.ت، ج3، ص 70 وما بعدها. كذلك انظر رسائل: الغزالي، أيها الولد، وابن الجوزي، لفتة الكبد.

والانشغال عنها بالأعمال والشهوات والتقليد من الأسباب التي عددها الإمام الغزالي التي تؤدي إلى خلو "القلب" من العلوم. بالإضافة إلى "الخبث الناشئ من تراكم المعاصي وكثرة الشهوات"[53].

وقد أشار (بياجيه) إلى دور العوامل الوجدانية في التأثير على مختلف أنماط السلوك. ووضح عدم إمكان تفسير تطور الحياة الوجدانية دون إبراز الدور المهم لعامل السيطرة على النفس[54]. ولارتباط الإرادة بالهمة على العمل والكسب لم يوكل أمرها لإرادة الفرد منفردة دون عون الله. "إنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات. فإذا حُثت سارت، ومتى رأيت في نفسك عجزاً أو كسلاً فالجأ إلى الموفق"[55].

3- الخبرات المكتسبة (التعليم والتدريب):

التعلم من أكثر جوانب التأثير على العقل التي يتسع فيها المجال لتنمية العقل باكتساب المعارف والخبرات. ويبدأ تأثير التعلم واكتساب الخبرات للشخص سليم الحواس والعقل بلحظة ميلاده. ولا يتوقف إلا بموته أو تعطل أدوات حسه وعقله. فعامل الخبرات المكتسبة من العوامل المؤثرة على النمو العقلي التي أشار إليها القرآن الكريم وتوافق عليها المفكرون. وهذه الخبرات يكون تحصيلها عن طريق النظر أو التقليد والاتباع. فطريق النظر والفكر هو الطريق الذي زود الإنسان بالعقل من أجل أن يسلكه في أمور دينه ودنياه[56]. يقول الله تعالى: [أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون] البقرة: 44.. ويقول أيضاً: [وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] الحشر:21.. أما طريق الاتباع فمنه ما هو محمود وما هو مذموم. **فالأول** المحمود هو الاتباع عن فكر وروية، ويبينه قوله تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ] الطور: 21.. **والثاني** المذموم هو الاتباع الأعمى، ويوضحه قوله جل شأنه: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ] المائدة: 104. وقد استفاض المسلمون في بيان مميزات ومثالب الطريقين اللذين أشار إليهما القرآن. ووقفوا على أهمية التدريب و العناية بما يكتسب من معارف وسلوك مؤثر على العقل[57]. كما مثل مجال التعليم والتعلم أكثر المجالات التي اهتم بها المربون على مختلف مشاربهم لبالغ أثره على النمو العقلي. فالعلوم المكتسبة بالتعلم والتعليم هي التي يزداد بها العقل ويتسع[58]. ولأهمية عملية

---

[53] الغزالي، الإحياء، ج3، ص 16-17.
[54] Piaget et al, The Psychology of the Child, op.cit, P, 158.
[55] ابن الجوزي، لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، مرجع سابق، ص 35.
[56] الغزالي، الإحياء، ج4، ص413.
[57] الغزالي، الإحياء، ج 3، ص 70 وما بعدها.
[58] القاضي عبد الجبار، المحيط بالتكليف، مرجع سابق، ص 16-18.

التعليم أسهب الكثير من المؤلفين في ذكر المؤثرات عليها التي تتراوح بين الاستعداد الفطري الأولي للمتعلم وطبيعة المادة المتعلمة وصفات المعلم وأسلوبه في التعليم والجو الذي تتم فيه العملية التعليمية وغيرها من العوامل المساعدة على إكمال مهمة التعليم[59]. كما فطنوا لارتباط القدرة على التعلم بعمر المتعلم ونضجه الذي يحدد صعوبة المادة المتعلمة وطريقة عرضها عليه[60]. فالفطرة السليمة إن لم تصقل بالتدريب فقدت قوتها[61].

وفي جانب علماء النفس لا تخفى القيمة التي يضعها (فايجوتسكي) على عامل التدريب والتوجيه باعتباره عاملاً ضرورياً لتدرج النمو العقلي خلال نطاقات أو مجالات النمو المحتملة (ZPD)[62]. فالتعليم النظامي والموجه يمثل عند (فايجوتسكي) الموجه والمحرك للنمو العقلي بحسب محددات النضج البيولوجي. ويدخل (فايجوتسكي) التعلم من التفاعل والنقل الاجتماعي مصدراً أساسياً للخبرات المكتسبة التي تمثل أساس العمليات العقلية العليا. كما يرى (فايجوتسكي) أنّ كل العمليات العقلية العليا هي عمليات اجتماعية تم استدخالها وإدراجها في البنى العقلية للفرد[63]. كذلك أدرج (بياجيه) التدريب ضمن العوامل المؤثرة على النمو العقلي وأوضح أهمية الخبرات المكتسبة من التعاطي المباشر مع الأشياء وتلك المكتشفة عن طريق الفعل والتجريب[64]. فتجارب الطفل في التعامل مع البيئة تمثل الدافع والمحرك لنموه العقلي. واشترط (بياجيه) كذلك مواكبة التدريب لنضج البنى العقلية حتى يكون فاعلاً. فوجود البناء الأولي السليم "الفطرة السليمة" ونضجها محدد أساسي لفاعلية برنامج التدريب واكتساب الخبرات.

4/ المؤثرات العضوية (البيولوجية):

تشمل العوامل العضوية المؤثرة على النمو العقلي جانبي النضج والوراثة. وقد اتفق المفكرون في الجانبين، جانب التراث الإسلامي وجانب علم النفس، على تأثير عامل النضج البيولوجي على نمو العقل. وذلك لارتباطه بنمو أدوات الحس والإدراك الجسدية المتمثلة في الجهاز العصبي، "فالمخ هو قاعدة العقل ومحوره الأساسي" *"The Brain is the seat of the Mind"*[65]. وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى عامل النضج المؤدي إلى بلوغ الشدة المؤهلة لتحمل العلم وتبعات الحكم. يقول الله تعالى: [وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً] يوسف: 22. كما أشارت إلى عامل النضج باعتباره مؤهلاً لمعرفة المصالح الدنيوية والتمكن من تحصيلها. يقول تعالى: [فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا]

---

[59] الغزالي، الإحياء، ج1، ص 49-57، الزرنوجي، تعليم المتعلم ليعلم طريق التعلم، مرجع سابق.

[60] المرجع نفسه؛ ابن البلدي، أحمد بن محمد بن يحي، كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم.

[61] الفارابي، كتاب السياسة المدنية، مرجع سابق، ص 76

[62] Vygotsky, Mind in Society, op.cit, P. 86; Flavell et al, Cognitive Development, op.cit, P.16

[63] Wretsch, Vygotsky, op.cit, P. 61-63.

[64] Piaget, et al, op.cit, P. 155-156

[65] الزيات، فتحي مصطفي الزيات، الأسس البيولوجية والنفسية للنشاط العقلي المعرفي، ط1، دار النشر للجامعات، 1998م، ص 63.

الكهف:82.. ولم يشذ عن إثبات أهمية جانب النضج أي من المفكرين المسلمين. فنمو جانب العقل العملي الذي تناوله الفلاسفة بيّن الارتباط بنمو أدوات الحس الجسدية. فالعقل العملي هو جانب النفس الذي يسوس البدن ويستخدم أدواته للحس الظاهرة والباطنة[66]. ولا يبعد جانب العقل النظري عن هذا التأثير لاستناده إلى المادي واستخدام أدوات البدن في مبدئه[67]. ويؤكد ارتباط نمو العقل بنضج أدوات الحس تدرج قوى الحواس المؤدي إلى مرحلة التمييز التي يُرتقي بعدها إلى مرتبة العقل وما وراءه من نبوه[68]. ويزيده إيضاحا قول الغزالي " تأخر العلوم عن عين العقل في مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات "[69]. أو كما قال: " إنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز والبلوغ لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم"[70]. فيرتبط بعامل النضج العمر الذي لا تخفى أهميته لبداية التعليم والتدريب والصبر على تبعاته. حيث يوصى بأن "يغتنم أيام الحداثة وعنفوان الشباب"[71]، لتحصيل العلم. كما يُلتزم بالعمر في التدرج في التلقين واختيار مواد الدرس[72].

وقد أقر علماء النفس بأهمية عامل النضج البيولوجي وتأثيره على النمو العقلي. ويشير إلى هذا (بياجيه) في مقدمته لكتاب (*The Psychology of The Child*) علم نفس الطفل، بعدم إمكانية فصل النمو العقلي عن النمو الجسمي ونضج الجهاز العصبي على وجه الخصوص[73]. فعامل النضج، وبخاصة نضج الجهاز العصبي هو أول العوامل تأثيراً على النمو العقلي. وذلك بما يتيحه من إمكانات لظهور أنماط جديدة من السلوك. كما يلعب النضج العضوي دوراً مهماً كذلك في ثبات ترتيب مراحل النمو العقلي عند (بياجيه)[74].

أما عند (فايجوتسكي) فيمثل خط النمو الطبيعي المرتبط بالنمو العضوي العام والنضج أحد الخطين الرئيسيين لنمو سلوك الطفل[75]. ولا يتعدى الخط الثاني للنمو المتمثل في النمو الثقافي الاستعدادات والمحددات التي ترتبط بالنضج والنمو الطبيعي. فتدرج مراحل النمو العضوي يرتبط بها تدرج القدرة على النمو الثقافي " ففي مرحلة نمو عضوي معين يتمكن الطفل من الكلام وفي مرحلة أخرى يتمكن من نظم القياس والعد"[76]. ويحرص (فايجوتسكي) على توضيح أن النضج العضوي برغم ما تقدم من أثره يلعب دور الشرط

---

[66] ابن سينا، الشفاء، كتاب النفس، مرجع سابق،ص37-39، 185.
[67] ابن سينا، الشفاء، كتاب النفس، مرجع سابق،ص37-39، 185.
[68] الغزالي، المنقذ من الضلال، مرجع سابق، ص 148-149.
[69] الغزالي، الإحياء، ج 3، ص 19.
[70] المرجع نفسه.
[71] الزرنوجي، مرجع سابق، ص 25.
[72] ابن البلدي، مرجع سابق، ص.

[73] Piaget, et al, The Psychology of the Child, op.cit, P vii.
[74] Ibid, P.155-156
[75] Vygotsky, The Problem of The Cultural Development of The Child, op.cit
[76] Ibid.

وليس القوة الدافعة للنمو الثقافي[77]. مؤكداً بذلك رؤيته بأنّ دافع ومحرك النمو العقلي هو الأثر الاجتماعي الثقافي. ولا يعدو أثر جانب النضج عن إعداد الشروط والأدوات اللازمة لتحقق النمو الثقافي. فأهمية عامل النضج باعتباره قوة دافعة للنمو تنحصر في خط النمو الطبيعي. ويلعب النضج دوراً ثانوياً في تطور القدرات العقلية العليا[78]. وفي مجال بيان أهمية النضج في النمو العقلي تبرز المعارف المحصلة بواسطة جهود العلماء من التخصصات المختلفة. مثل الأطباء والمعالجين النفسيين الذين يربطون القصور في المقدرات العقلية بالخلل العضوي أو الوظيفي[79]، أو التلف والإصابات المؤثرة على البنى الدماغية. وربما تكون مساهمات علماء الأعصاب من أكثر الأدلة وضوحاً على أثر نضج ونمو الجهاز العصبي على المقدرات العقلية. فقد تم ربط الكثير من المقدرات العقلية بنضج واكتمال نمو مناطق محددة من الدماغ. وقامت على ذلك الجهود لتعيين البنى الدماغية المرتبطة بالأنشطة والمقدرات العقلية المختلفة. وقد حاول العلماء المسلمون، من أمثال (ابن سينا) و(الغزالي) وغيرهم، الخوض في تحديد المناطق الدماغية المرتبطة بالمقدرات العقلية الحسية الإدراكية[80]. إلا أن الرؤى التي أبدوها حول هذا الموضوع لم يؤيدها العلم الحديث. ولكن يحمد لهم إدراكهم لاستناد المقدرات العقلية على البنى العضوية للدماغ وإن لم يوفقوا في تحديد أماكنها[81].

ويمثل الجانب العضوي من نمو العقل المجال الذي تظهر فيه آثار العوامل الوراثية على النمو العقلي. وقد تنبه المفكرون لأهمية محاولة التحكم في هذا الجانب قبل تخلق الجنين. وذلك باختيار الأبوين سليمي الجسم والعقل لضمان صحة المولود الجسدية والعقلية. ولعل أبكر دليل على ذلك دعوة أفلاطون في جمهوريته إلى التدخل "المؤسسي" بوساطة الدولة في اختيار الأزواج الذين يسمح لهم بالتناسل لضمان صحة وسلامة الأجيال التي تقوم عليها الجمهورية الفاضلة[82]. وقد تابعه في إثبات تلك الأهمية، والعمل على ضمان سلامة الأجيال، المفكرون من فلاسفة وأطباء في مختلف العصور. من أمثال (ابن سينا) و(ابن البلدي) و(جالتون) وغيرهم من المفكرين الذين برزت وتعددت آراؤهم حول تأثير الوراثة على العقل والنمو الإنساني عامة[83]. فيلاحظ إقرار الجميع بأهمية العامل العضوي البيولوجي بجانبيه (النضج والوراثة) في التأثير على النمو العقلي، إلا أن لا أحد يشير إليه دافعاً حقيقياً ومحركاً أوحد لعملية النمو العقلي.

---

[77] Ibid,

[78] Vygotsky, Mind in Society, op.cit, P.19

[79] Rosenzweig, Mark R; Leiman, Arnold L., Physiological Psychology, 2nd Edition, Random House Inc., New York, 1989, P 140-141.

[80] ابن سينا، الشفا، مرجع سابق، ص 235-236.

[81] الزبير بشير طه، الوظائف الذهنية وآلتها العصبية في التراث الإسلامي، مرجع سابق.

[82] انظر: أفلاطون، الجمهورية، مرجع سابق.

[83] انظر مفرح، مؤثرات الوراثة والبيئة على النمو العقلي للطفل، مرجع سابق.

5- المؤثرات البيئية:

تعددت المؤثرات البيئية على النمو العقلي التي أشار إليها المفكرون، فشملت العوامل الطبيعية والكيميائية والأسرية الاجتماعية. وأتسع مداها ليشمل كامل حياة الكائن البشري قبل وبعد ميلاده.

فيتسع جانب العوامل البيئية الطبيعية التي تناولها المسلمون ويشمل أثر عوامل المناخ والموقع الجغرافي والتضاريس وما يرتبط بها من حياة حيوانية ونباتية تمثل غذاء الإنسان. وقد أشار إلى هذا الأثر ابن خلدون إجمالاً دون تفصيل عندما عد موضع البقعة من الأرض من الشمس والنجوم من العوامل المؤثرة على البشر تأثيراً مباشراً. أو غير مباشر عن طريق تأثيرها على الهواء والماء ونوعية الغذاء. فربط بين تأثير درجات الحرارة والرطوبة والتعرض لأشعة الشمس وبين النشاط البشري عموماً[84].

وحاول بعض العلماء المسلمين تقسيم المقدرات العقلية والبشرية التي يتصف بها البشر بحسب أقطار وبقاع الأرض التي يعمرون[85] ونوعية المساكن التي يقطنون[86] والأطعمة التي يتناولون[87]. كما أجمل المسلمون الإشارة إلى الآثار الحميدة والرديئة المرتبطة بتوافر ونوعية الغذاء الذي تتناوله الأم الحامل والطفل، وأثر ذلك على النمو العقلي للجنين والطفل بعد ذلك[88]. وخص بعضهم بالذكر بعض أنواع الأطعمة المؤثرة على القدرات العقلية كالتذكر والنسيان[89]. كذلك أمن المسلمون على الأضرار المترتبة على تعاطي الحبالى والأطفال للخمر[90]. التي ثبت تأثيرها الضار على النمو العقلي للصغار[91]. وقد يفوقها ضرراً التدخين وتعاطي المخدرات وغيرها من المواد الكيميائية[92]. وقد استفاض علماء النفس المعاصرون في تفصيل ذلك وبيانه فتناولوا أثر غنى وتنوع الغذاء واحتوائه على الفيتامينات وخلوه من الملوثات الكيميائية وغيرها من العوامل المرتبطة بالطعام والشراب على النمو العقلي.

أما مجال البيئة الأسرية فيبين الاهتمام به في الإسلام الحرص على الاختيار الصالح للزوجين قبل إنجاب الأطفال. وهذه الطائفة من العوامل الأسرية، وإن لم يشر إليها المفكرون المسلمون تفصيلاً، إلا أنه لا يمكن إنكار تقديرهم لأهميتها الذي يتضح من الإرشادات المتعلقة بتوفير متطلبات النمو العقلي و الجسدي التي أسهب الأطباء في تفصيلها

---

[84] ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، د.م.ن، ب.ت، ص 82-87.
[85] ابن سينا، أبو علي الحسن ابن علي، القانون في الطب، دار صادر، بيروت، جمادى الآخرة 1294هـ.، ص 91-93.
[86] القزويني، زكريا بن محمد القز ويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للطباعة ، بيروت، 1960م، ص9-10.
[87] ابن خلدون، مرجع سابق، ص 88-89.
[88] ابن البلدي، مرجع سابق، ص 187-218.
[89] الجنزوري، مرجع سابق، 57-58، 60.
[90] ابن البلدي، مرجع سابق، ص 212-213.
[91] Hunt, Earl, Nature vs. Nurture: The Feeling Of Vujade, op.cit,
[92] Jones, Hendree E., Drug Addiction During Pregnancy, Advances in Maternal Treatment And Understanding Child Out Comes.

وبيان أهميتها وأثرها على صحة الأم والطفل التي تدل عليها عناوين مؤلفاتهم، وأسماء فصولها[93].

الخاتمة:

بعد السرد السابق للمؤثرات على النمو العقلي يتضح أنّ المصادر الدينية الإسلامية أشارت إلى تفضل الله سبحانه وتعالى على البشر بالقدرة على التعقل وأدواته. وقد انطلق المسلمون من هذه النظرة إلى فطرية العقل لبيان العوامل المؤثرة على العقل ونمو القدرات العقلية. ولم يبعد علماء النفس عن إثبات هذا الجانب الفطري لقوى الإنسان العقلية والإدراكية. إلا أنهم في سعيهم لإثبات السمة العلمية لأعمالهم لم يردوا أصلها إلى الخالق الذي لا يتعرضون له في تناول موضوعاتهم المتعلقة بالمخلوق. فنجد إشارة البعض إلى المقدرات العقلية التي يظهرها الأطفال وتطورها إشارة إلى مسبب مبهم قد يسمى أحيانا الطبيعة أو الطبع (*Nature*). أو عملية التطور والارتقاء التي تدرج خلالها الجنس البشري مبتعداً عن بقية أعضاء مملكة الحيوان[94].

وبتخطي عامل الإرادة والمشيئة الإلهية تتقارب النظرات بين علماء التراث الإسلامي وعلماء النفس حول تأثير العوامل المختلفة على النمو العقلي التي تتسع مصادرها لتشمل المجالين الوراثي والبيئي المتعدد الجوانب. فالعلم الحديث لا ينفي أهمية العوامل التي أشار إليها السابقون في كثير من الأحيان بل يزيد في تفصيل وإيضاح الآثار المترتبة عليها مستعيناً بالتطور العلمي والتكنولوجي الضخم الذي يميز العصور الحديثة عن سابقاتها.

النتائج:

1. اتفاق المنظور الإسلامي وعلم النفس في الاهتمام بدراسة النمو العقلي المعرفي وبيان مراحله وغاياته.
2. الاتفاق حول تدرج النمو العقلي المعرفي وارتباطه بالنمو البيولوجي.
3. الاتفاق حول أهمية اللغة وارتباطها بالنمو العقلي.
4. تميز التناول الإسلامي للنمو العقلي باعتباره عملية تستمر وتتجاوز مراحلها مرحلة النضج البيولوجي مرتبطة بالتكليف الديني والمسؤولية الاجتماعية وما يترتب عليهما.
5. تأثير المرجعيات الفكرية والثقافية على الاهتمام بجوانب النمو العقلي المعرفي والمؤثرات عليه.

---

[93] ابن البلدي، تدبير الحبالى والأطفال و الصبيان وحفظ صحتهم ومعالجه الأمراض العارضة لهم، مرجع سابق. إبن الجزار، كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم، مرجع سابق، الغزالي، الإحياء، ج3، ص 69.

[94] Crain, Theories Of Development, op.cit, P

المراجع :

أولاً: القرآن الكريم
ثانياً: المراجع العربية
1. ابن البلدي، أحمد بن محمد بن يحي، كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، تحقيق محمود الحاج قاسم محمد، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980م.
2. ابن باجة، أبو بكر بن باجة الأندلسي، كتاب تدبير المتوحد، تحقيق وتقديم معن زيادة، ط1، دار الفكر، بيروت، 1978م.
3. ابن حزم، الإمام أبو محمد علي بن أحمد (ابن حزم الظاهري)، الفِصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت 1985م.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، د.م.ن.
5. ابن سينا، أبو علي الحسن ابن علي، الشفاء، الطبيعيات، النفس، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور، تحقيق جورج قنواتي، سعيد زايد، الهيئة المصرية للكتاب، 1975م.
6. ابن سينا، أبو علي الحسن ابن علي، القانون في الطب، دار صادر، بيروت، 1294هـ
7. ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم مصطفى غالب، دار الهلال، بيروت، 1983م.
8. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد، تحفة المودود بأحكام المولود، خرج أحاديثه احمد بن شعبان بن أحمد، ط1، مكتبة الصفا، القاهرة، 2005م.
9. أبو عاقلة، الشيخ محمد أبو عاقلة الترابي، فلسفة ابن طفيل ومنهجه في التربية، ط1، دار البيان للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999م.
10.الزيات، فتحي مصطفى الزيات، الأسس البيولوجية والنفسية للنشاط العقلي المعرفي، ط1، دار النشر للجامعات، 1998م.
11.شمس الدين، عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل، موسوعة التربية والتعليم الإسلامية، ط1، دار اقرأ للنشر والتوزيع، بيروت، 1984.
12.طه، الزبير بشير، "الوظائف الذهنية وآلتها العصبية في التراث الإسلامي"، *The Arab Journal of Psychiatry, 1991, Vol. 2 No 1, Page 87-105.*
13.طه، الزبير بشير، علم النفس في التراث العربي الإسلامي، ط1، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، 1995.
14.الغزالي، الإمام أبو حامد، إحياء علوم الدين، ط3، دار القلم، د.م.ن، ب.ت.
15.الغزالي، الإمام أبو حامد، المنقذ من الضلال: مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي، عبد الحليم محمود، مطبعة حسان، د.م.ن، ب. ت.
16.الغزالي، الإمام أبى حامد، مجموعة رسائل الإمام الغزالي: ست وعشرون رسالة من رسائل الإمام الغزالي، القسم الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ب.ت.

17.الفارابي، أبو نصر، رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة *Leiden, E. J. Brill.* 1895. *Friedrich Dieterici*
18.الفارابي، أبو نصر، كتاب السياسة المدنية، الملقب بمبادئ الموجودات، حققه وقدم له وعلق عليه فوزي متري نجار، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1934م.
19.القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القز ويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960م.
20.القيرواني، ابن الجزار، كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
21. المحاسبي، الحارث بن أسد، العقل وفهم القرآن، تحقيق وتعليق وتقديم حسن القوتلي، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م.ن، 1983م.
22.محمود المصري، تدبير الأطفال الجسدي والنفسي في التراث العلمي الطبي العربي، ماجستير غير منشور، جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، ب. ت.
23.مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق، حققه قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية بيروت، 1966م.
24.مفرح، إسراء محمد البشير، مؤثرات الوراثة والبيئة على النمو العقلي للطفل بين التراث الإسلامي وعلم النفس، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم، 2011م.

ثالثاً: المراجع المترجمة إلى العربية:

1. أفلاطون، الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م.ن.
2. ميللر، باتريشيا ميللر، نظريات النمو، ترجمة محمود عوض الله سالم، مجدي محمد الشحات، أحمد حسن عاشور، ط1 العربية، دار الفكر، عمان، الأردن، 2005م.
3. ماير، هنري و. ماير، ثلاث نظريات في نمو الطفل، ترجمة هدى محمد قناوي، د.م.ن، ب.ت.

رابعاً: المراجع الإنجليزية.

1. *Bidell, Thomas R.; Fischer, Kurt W.,* ***Between Nature and Nurture: The Role of Human Agency in the Epigenesis of Intelligence****, EDT, Robert Sternberg, Elena Grigorenko,* ***Intelligence, Heredity and Environment****, Cambridge University Press, Reprinted 1999.*

2. *Crain, William,* ***Theories of Development Concepts and Applications****, 5th Edition, Pearson Education LTD, London, 2005.*

3. *Galton, Francis, (1865),* ***Heredity Talent and Character****. Originally published in Macmillan's Magazine, 12,157-166, 318-327. From site:*
http://psychclassics.yorku.cal/Galton/talent.htm..

4. *Hunt, Earl,* ***Nature vs. Nurture: The Feeling of Vujade****, EDT, Robert Sternberg, Elena Grigorenko,* ***Intelligence, Heredity and Environment****, Cambridge University Press, Reprinted 1999.*

5. *Jones, Hendree E.,* ***Drug Addiction During Pregnancy, Advances in Maternal Treatment And Understanding Child Out Comes****,* http://www.psychologicalscience.org .
6. *Klitsh, M.* ***Children with Cocaine Exposure Have Elevated Risk of Cognitive Impairment at Least Until Age Two, Perspectives On Sexual and Reproductive Health****, Vol. 34, No.6, (Nov 2002), P. 317-318.*
7. *Flavell, John H; Miller, Batricia H; Miller, Scott A,* ***Cognitive development****, 3rd edition, prentice hall, Englewood cliffs, New Jersey,1997.*
8. *Rosenzweig, Mark R; Leiman, Arnold L.,* ***Physiological Psychology****, 2nd Edition, Random House Inc., New York, 1989.*
9. *Obeid, Raga A.,* ***An Islamic Theory of Human Development****, EDT, Murray Thomas,* ***Oriental Theories of Human Development: Scriptural and Popular Beliefs from Hinduism****, Buddhism,* ***Confucianism, Shinto and Islam****, Peter Lang Publishing, New York, 1988.*
10. *Thomas, R. Murray EDT,* ***Oriental Theories of Human Development: Scriptural and Popular Beliefs from Hinduism****, Buddhism, Confucianism, Shinto and Islam, Peter Lang Publishing, New York, 1988.*
11. *Piaget, Jean,* ***The Language and Thought of the Child****, Kegan Paul, Trench, Trubner & co. LTD, London, 1926.*
12. *Piaget, Jean, The construction of Reality in The Child, Trans. Margaret Cook, 1955, site:* www.http://marxists.org/reference/subject/philosophy/works/fr/piaget2.htm
13. *Piaget, Jean; Inhelder, Bärbel,* ***The Psychology of the Child****, Routledge & Kegan Paul, London, 1969.*
14. *Vygotsky, L.S.* ***Mind in Society the Development of Higher Psychological Processes****, Harvard University Press, USA, 1978.*
15. *Vygotsky, L.S.* ***The Problem of the Cultural Development of the Child****, 1929, The Journal of Genetic Psychology, 36,413-32. Site:* www.marxsist.org/archive/vygotsky/works/1929/culture_development.htm.
16. *Vygotsky, L.S.* ***Three Planes of Psychological Development****, 1930 source: Ape,* ***Primitive Man, And Child: Essays in the History of***

Behavior.
Site:www.marxists.org/archive/Vygotsky/woks/1930/man/ch01.htm
17. *Vygotsky, L.S,* ***Play and its Role in the Mental Development of the Child****, Site: www.marxsist.org/archive/vygotsky/works/1993/play.htm*
18. *Wretch, James V.,* ***Vygotsky and The Social Formation of Mind****, Harvard University Press, Massachusetts, 1985.*
19. *Wretch, James V; Tulviste, Peter, L.S.* ***Vygotsky and Contemporary Developmental Psychology****, EDT, Harry Daniels,* ***An Introduction to Vygotsky****, 2nd edition, Routldge, London, 2005.*